الاعتذارُ من العلم!

قال ابن قتيبة[1] في مَطْلَعِ كتابِهِ إصلاحِ غَلَطِ أبي عبيد[2]: **(قَدْ كنَّا زمانًا نعتذر من الجهل، فقد صِرنا الآن نحتاج إلى الاعتذارِ مِن العلم، وَكنَّا نؤمِّل شكرَ الناس بالتَّنْبيهِ والدَّلالة، فصِرنا نرضى بالسلامة! وليس هذا بعجيبٍ مع انقلاب الأحوال، ولا يُنْكَر مع تغيُّرِ الزَّمان، وفي الله خَلَفٌ وهو المستعان. وَنَذْكر الأحاديث التي خَالَفْنا الشيخَ أَبا عبيد رحمه الله في تفسيرها، على قِلَّتِها في جَنبِ صوابه، وَشُكرِنا ما نفعنا الله من عِلْمِه، معتدِّين في ذلك بأمرين:**

أحدهما: ما أوجَبَه الله تعالى على من عَلِم في عِلْمه. والآخر: ألَّا يقف ناظرٌ في كتبنا على حرفٍ خالفناه فيه، فَيَقْضي عَلَينا بالغَلَط ونحن من ذلك إن شاء الله سالمون. وما أولاكَ رحمك الله بتدبُّرِ ما نَقُول؛ فإنْ كان حَقًّا وكنت لله مريدًا أن تتلقَّاه بقلبٍ سليم، وإن كان باطلا أو كان فيه شيء ذَهَبَ عنَّا، أن تردَّنا عنه بالاحتجاج والبرهان. فإنَّ ذلك أبلغُ في النُّصْرةِ وأوجبُ للعُذْرِ وأشفى للقلوبِ).

الغريب:

معتدِّين: معتبرينَ وَوَاضِعِين في الحسبان.

ما أولاك: ما أجدَرَك وأخلقَك.

---

[1] هو عبد الله بن مسلم بن قتيبة أبو مُحَمَّد الكاتب الدينوري، سَكَنَ بغداد، وَحَدَّثَ بِها عن إسحاق بن راهويه، وأبي حاتم السجستاني. عاش زمن دولة بني العباس، وكان ثقة دَيِّنًا فاضِلا، يُعِدُّ خطيب أهل السنة والجماعة، فقد قيل فيه بأنه في أهل السنة بمنزلة الجاحظ عند أهل المعتزلة، وهو صاحب التصانيف المشهورة، والكتب المعروفة منها: غريب القرآن، وغريب الحديث، ومشكل القرآن، ومشكل الحديث، وأدب الكتاب، وعيون الأخبار، وكتاب المعارف، وغير ذلك. سكن ابن قتيبة بغداد وروى بها كتبه إلى حين وفاته. وقيل: إن أباه مروزي، وأما هو فمولده بغداد، وأقام بالدِّينَوَر مدة فنسب إليها. توفي قرابة سنة سبعين ومائتين.

[2] هو الإمام أبو عبيد القاسم بن سلَّام، بتشديد اللام، اشتغل أبو عبيد بالحديث والأدب والفقه، وكان ذا دين وسيرة جميلة ومذهب حسن وفضل بارع. كان ربَّانيًّا متفنِّنًا في أصناف علوم الإسلام من القراءات والفقه والعربية والأخبار، يقال إنه أول من صنف في غريب الحديث، ولما وضع كتاب الغريب عرضه على عبد الله بن طاهر، فاستحسنه وقال: إن عقلا بَعَثَ صاحبه على عمل هذا الكتاب حقيقٌ ألا يُخْوَج إلى طلب المعاش، وأجرى عليه عشرة آلاف درهم في كل شهر. وقال الهلال بن العلاء: منَّ الله تعالى على هذه الأمة بأربعة في زمانهم: بالشافعي تفقُّه في حديث رسول الله ﷺ، وبأحمد بن حنبل ثَبَتَ في المحنة، وبيحيى بن معين نفى الكذب عن حديث رسول الله ﷺ، وبأبي عبيد القاسم بن سلام فَسَّر غريبَ الحديث ولولا ذاك لاقتحم الناس الخطأ.

البيان:

يتضمَّن كلامُ ابن قتيبة رِحَمِهُ الله العناية بالتجرُّد عن الانحيازات الخفية المضمَرَة التي تحول دون رؤية الحق بأدلَّته، ويشتمل على التحذير من التعصب للآراء لمكانةِ قائليها أو لتقدُّمِ زمانهم دون اعتبار النظرِ في الأدلة، وينبِّه إلى أن التَّعصب للأقوال لمجرَّد كونِها سابقةً وَرَدَّ المعارف لمجرَّد كونها لاحقةً ليس معيارًا علميًّا صحيحًا.

وَلَقَدْ كَثُرَت تحذيرات أهلِ العلم من هذا المسلك المتجانِفِ عن الصواب وتواردت تحذيراتهم منه، ففي القرن الثالث يقول العلَّامة المبرد: «**وليس لِقِدَمِ العهد يُفَضَّل القائلُ، ولا لحدثان عَهْدٍ يُهْتَضَم المصيبُ، ولكن يُعْطى كلٌّ ما يستحق**». وفي القرن الخامس يقول الشاعر ابنُ شَرَفِ القيرواني:

قل لمن لا يرى المعاصرَ شيئًا * ويرى للأوائل التــقديما**

إن ذاك القديم كان جديـــدًا * وسيغدو هذا الجديد قديما!**

وفي القرن السابع يقول إمام النحاة ابن مالك: «**وإذا كانت العلومُ مِنَحًا إلهيَّة، ومواهبَ اختصاصيَّة، فغير مستبعدٍ أن يُدَّخرَ لبعض المتأخرين ما عَسُرَ على كثيرٍ من المتقدمين، أعاذَنا الله من حَسَدٍ يَسُدُّ بابَ الإنصاف، ويَصُدُّ عن جميل الأوصاف**»،

وقد أنصف ابن قتيبة من نفسه في هذا المقطع المختارِ من جهتين:

الأول: إشارته إلى انتفاعِهِ بعلمِ أبي عبيد، وبيانه أن هذه الأخطاء التي تَتَبَّعها في كتابِه قليلةٌ في جنب صوابِه، وهي نزرٌ يسير إلى جوارٍ كثير.

الثاني: عدم تبرئة نفسه من هذه الأخطاء العلمية والهفوات المعرفية، بل حَثَّ قارئه على ردِّه إلى جادَّة الصواب متى وَجَدَ باطلا، ولكن بالاحتجاج والبرهان.

فرحم الله الإمام ابن قتيبة والإمام ابن عبيد ونفعنا بعلومهم.